تقديم الطبعة الثالثة

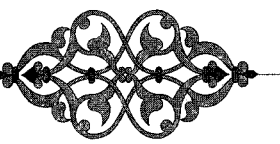

الأستاذ الدكتور فاروق حمادة

الحمدُ لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغُرِّ الميامين، **وبعد:**

فإن كتاب (**إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر**) للإمام الحافظ أبي الحسن علي بن محمد، المعروف بابن القطان الفاسي؛ كتاب عزّ نظيره، ونَدَر مثيله مضموناً ومنهجاً، فقد تناول الأحكام الشرعية لحاسة البصر، وتتبَّعها في مظانها الفقهية وغير الفقهية، وصدَّرها بالآيات والأحاديث النبوية، واستخرج مدلولاتها من هذه وتلك بروح التمكُّن العلميِّ، والنظر الاجتهادي الذي يستند إلى الأصول والقواعد، فجاء أنموذجاً يحتذيه الدارسون الذين يستنبطون الأحكام، وينسبونها إلى الشريعة المحمدية، مع ورع ظاهر حتى في استعمال الألفاظ والكلمات، إنّه خزانة محشوَّة بالنصوص الشرعية، وآراء الفقهاء المذهبية، بترتيب محكم ورؤية تامة شمولية.

وقد كشف وجه الحق في هذه الأحكام، ولم يخلط الرأي الذي يدعمه الدليل والحجة بالرأي الذي يستند إلى العاطفة والهوى، ويسقط ذلك على الشريعة الغراء، وأُذكِّر أنه المرجع الحجة في هذا الباب، وسيبقى كذلك إن شاء الله، ولقد لقي القبول والاستحسان عبر العصور إلا أنه بقي منزوياً في صقع ذلك

obeikandl.com

الإمام ـ المغرب ـ فنقل عنه علماء ذلك الصقع الذي كان نئيّاً بعيداً، ولهجوا بذكره واستحسانه، واختصره بعض الفقهاء منهم، ولكن مخطوطاته غدت نادرة لم يعثر المحقق إلا على واحدةٍ وفيها سقم واضح، ومختصرٍ فقهي له لا يخلو من شيء من ذلك، نسأل الله تعالى أن يُهيِّئ لنا نسخاً مخطوطة جيدة منه، ومن المؤلفات البديعة المفقودة لهذا الحافظ الإمام.

وقد طبع للمرة الأولى فنفدت طبعتُه، ثم صوّر مرة ثانية عنها فنفدت كذلك، وكنت أحثُّ المحقق على إعادة النظر فيه، ولكن ظروفه لم تكن تسمح له بذلك، فعُدت إليه وقوّمت ما أمكن تقويمه من نصوصه، وأضفتُ ما يمكن إضافته ممَّا يسهِّل قراءة النص، أو يلقي ضوءاً عليه، وأزلتُ أخطاءً مطبعية وقعت فيه، فجاءت هذه الطبعة أنقى من سابقتيها، وأصفى وأهنأ للواردين إن شاء الله.

وحقيقٌ بكلِّ طالب علم مخلص، أو باحث جادٍّ، أو عالم طُلَعة أن يكون هذا الكتاب بين يديه، ومرجعه فيما تناوله مؤلفه وذهب إليه.

كما جاءت طباعتُه أعلى وأرقى، طباعةً تليق بهذا الكتاب الفذِّ في المكتبة الإسلامية.

فأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به، وأن يغدق على مؤلِّفه شآبيب الرحمة، ويجازي بالخير والإحسان في الحال والمآل محققه ومراجعه، ويثيب ناشره ثواب العاملين.. إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

في أبو ظبي
بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ
موافق ٦/ماي/٢٠١٠م

وكتبه
المستشار الدكتور
فاروق محمود حمادة

obeikandl.com

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور فاروق حمادة

إنَّ الحمـد لله نحمـده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بـالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فهو المهتد، ومَن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

ـ ١ ـ

أما بعد: فإن كثيراً من الأفكار تتألَّق بمرور الزمن، وتعاقُب الأيام، فتتلألأ في جنبات التاريخ وموجات الفكر الإنساني المتلاحق، نيِّرةً متميزة، يُشار إليها بالبنان ويُستشهد بها، وتُزين بها الآراء، ويُحتج بها في المحافل، ويرجع إليها

obeikandl.com

الناس في كل حين وآن، لا يُقلل من شأنها عند العقلاء أنها ليست من رعونات العصر، أو خارجة عن إبداع الجيل الحاضر ونزقه ونزغاته، وما ذلك إلا لأنها قامت من منطلق صحيح، وبُنيت بمنهج دقيق، وعالجت جانباً من جوانب الإنسانية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، لأنها من خصائص الإنسان ومميزات وجوده.

وإن أبقى الكتب مع الأيام هي التي تضمُّ قدراً كبيراً من هذه الأفكار، فلها القبول وعليها المدار.

وإن هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم: (**إحكام النظر في أحكام النظر بحاسّة البصر**) من الأسفار التي ضمّت نيّر الأفكار، وقويَّ الآراء، وسديد الاستنباطات في جانب خطير من جوانب الإنسانية الثابتة، ألا وهو النظر بالعين، وما تعكسه على النفس والمشاعر من آثار، قد تكون هذه الآثار في غاية النبل والسمو فترفع صاحبها إلى مقام الصدّيقين والشهداء، فيستحق النعيم المقيم في أعلى عليين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

أو تهبط بصاحبها إلى دركات الحيوانية، بل دون ذلك، فيكون من الغاوين الذين اتبعوا هواهم، وعاثوا يطلبون مناهم، وأنّى لهم ذلك؟! بل شأنهم في تعب دائم، وشقاء متجدِّد متعاظم، وسُعار لاهب متفاقم، وفي هؤلاء جاء قول الحق سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ

وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

ولخطورة حاسة البصر، وأهميتها في حياة الإنسان جاءت الشريعة المطهَّرة بتحديد مساربها، وبيان الوجهِ الحقِّ لاستعمالها، وضبط العلاقة السليمة بين الناظر وما حوله من الوجود إنساناً وجماداً، كلُّ ذلك بما يتفق وتكوينه وغرائزه، وجِبلَّته وفطرته حتى تكون حاسة البصر أداة خير وبناء، لا معول هدمٍ وإفسادٍ وشقاء.

وإنَّ أخطر نظرة تكون بهذه الحالة هي النَّظرة التي تتوجَّه من الرجل نحو المرأة، ومن المرأة نحو الرجل؛ بحكم الفطرة التي ينجذب إليها أحدهما نحو الآخر؛ وهي التي في الحديث: «**النظرة سهم من سهام إبليس**».

ولهذا جاءت النصوص الشرعية كثيرة ضافية تضبط النظر من أحدهما نحو الآخر حتى لا يزلَّ وينحرف، أو يسقط وينجرف، وليبقى كلاهما في إنسانية كريمة وعلاقة خيِّرة سليمة.

وقد أولى علماء الإسلام عبر العصور ولا يزالون هذه النصوص الشريفة كامل العناية والرعاية من تفسير وشرح، واستنباط وبيان، وذلك خلال درسهم للقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، أو في كتب الفقه الإسلامي وأبوابه، وكلُّ باب من أبواب كتب الفقه هو باب للإنسانية على حياتها، إن دخلت منه كان دخولها صحيحاً سليماً، وسيرها مأموناً قويماً، فالفقه الإسلامي هو كتاب الحياة الإنسانية الواسعة في كلياتها وجزئياتها، في دقائقها ومخفياتها، وقد وقف الفقهاء مع حاسة البصر والنظر وقفات غير قليلة في كتب التفسير، وشروح الحديث، ومصنفات الفقه.

ومع هذا فإنَّ هذا الكتاب فريد في بابه؛ إذ استقلَّ بجمعه دون غيره،

وعمل على الإحاطة بمسائله الكبرى وجزئياته، بل تعمق حتى بحث في خلجات النفس ودقائق الورع، وترك الإنسان المسلم يواجه أفكاره، وحركات نفسه، ويراقب الله وحده.. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦].

ولا نعلم كتاباً قبل هذا الكتاب أفرد مسائل هذا الباب بهذه الكيفية وهذه الشمولية.

وإن مؤلفه أبا الحسن بن القطان إمام كبير، وناقد خطير، وحافظ جهبذ.. إنه شيخ شيوخ الدولة الموحِّدية التي أطلقت الفكر من عقاله، وألحَّت على ضرورة طوافه وتجواله للتجديد والاجتهاد، وإن أقوال هذا الإمام وآراءه في علم الحديث والرجال انتهبَتْهَا الدواوين، وتزينت بها الأسفار التي جاءت بعده وغدت متكأً للحفّاظ والنقّاد الكبار، ولئن كان كتابه الكبير (**بيان الوهم والإيهام، الواقعين في كتاب الأحكام**)[1] هو الذي جعل صيته يطير شرقاً وغرباً، وسلَّم له بالإمامة في علم الحديث كلُّ من اطَّلع عليه، فإن كتبه الأخرى ـ وخاصة هذا الكتاب ـ قد حظيت بكل قبول وتقدير، واهتبالٍ واحتفال، لما أبدى فيه من قوة عارضة، وسعة أُفق، وحسن تقدير.

لقد كسر المصنف كتابه هذا على ثمانية أبواب، متيمِّناً بأبواب الجنة الثمانية التي هي محطُّ نظر المؤمنين على الدوام، جعلنا الله وإياه من أهلها، متدرِّجاً في أحكام البصر تدرُّجاً سليماً وقويماً؛ بدءاً من غضِّ البصر عما لا يحلُّ، ومشروعية ذلك، إلى ما لا يجوز إبداؤه للناظرين وما يجوز، ثم في نظر الرجال إلى الرجال في شتى الأحوال، ثم في نظر النساء إلى النساء، ثم في نظر الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال؛ وهذان البابان قد بلغ فيهما الذروة، وسامى المجتهدين الكبار، ثم عالج مسألة الضرورات المبيحة، وختمه في تقلبات

(١) حقق بإشرافنا وطبع بمقدمة لنا.

الطـرف في هذا الوجود، ومشروعية أقوال خاصة وأفعال محددة عند نظر بعض المرئيات، وفي خضمِّ هذه الأبواب الثمانية، جمع فأوعى، واستقصى فأوفى.

وأما عن منهجه في هذا الكتاب، فهو نموذج رائع، وقدوة لكلِّ باحث ودارس، ويمكن إجمال ذلك من خلال النقاط التالية:

١ ـ لقـد جمع ابن القطـان كل الآيات القرآنية المتعلِّقـة بالنظر، ووضعها فـي سياقـها الصحيح مع مـا قبلها وما بعدها، ونقل أقـوال أئمة التفسير فيها بدءاً من الصحابة الكرام ومن تلاهم من التابعين، كاشفاً عن أقوال أئمة اللغة العربية، مع بيان موضع الدليل، ومناط الأحكام فيها.

وأما نصوص السُّنَّة الشريفة، فحدِّث عن البحر ولا حرج، فلقد جمعها من مظانِّـها، ولم يفتْـه منها نصٌّ ذو شأن، وخطَّ لجمعها خطَّـةً جليلةً، فقد التزم بـأن يـورد الحديث الشريف إذا كان صحيحاً دون إسناد مع بيان مصدره، وإن كان فيه نظر عند المحدِّثين أو تكلّم أحد فيه ساقه بإسناده، وتكلَّم عليه جرحاً وتعديـلاً وتصحيحاً وتضعيفـاً، وأما الحديث المعـروف بالضعف فيورده ويشير إلى موضع العلة فيه. ومن خطته: تقديم الصحيح للاحتجاج، والتعريج على ما فيـه كلام ويصلح للاستشـهاد، ثم يورد الضعيف لبيان ضعفه حتَّى لا يأتي آتٍ بعده فيظنَّ به أنه لم يطَّلع عليه أو قصر في جمعه والنظر فيه.

ويبيّـن في كلِّ نصٍّ موضع الدليـل، وما يمكن أن يثور في الاعتراض عليه، وما قاله فقهاء السُّنة إن تنازعت دلالتَه الآراء.

لقد ذكر في كتابه هذا نحواً من مئتين وسبعين حديثاً في موضوع النظر، وتكلَّم عليها بما يكفي ويشفي، واقتبس علماء الحديث من بعده طرفاً غير يسير من كلامه فيها.

٢ ـ لقـد أحـاط المصنِّـفُ فـي كتابـه هذا في موضـوع النظر ومـا يتعلق

بـه بمـذاهب الفقهاء المعتبرين؛ بـدءاً من الصحابة الكـرام، ومَن تلاهم من التابعيـن، حتى الأئمـة الأربعة: أبي حنيفة النعمان بن ثابـت، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، ومَن سار خلفهم من كبار علماء الإسلام الذين يعتدُّ بقولهم، ويُرجع إلى رأيهم ونظرهم.. وكان يسوق أقوالَهم، ويستقصي مذاهبهم من كتبهم المعتمدة، بكلِّ أمانة وإنصاف وإتقان واستيفاء، ثـم يبيِّـن قويَّ هذه الآراء وقويمـها بالحجة والبـرهان، دون تعصُّب لمذهب أو انسيـاق مـع فكرة سابقة، فهو متحرٍّ للدليل، مجتهدٍ فـي الرأي، غير منتقٍ من الآراء بدافع هوًى معين، أو ملفقٍ بين بعضها تحت ضغط رغبة جامحة أو نزوة طارئة!.. وقد بلغ في هذا شأواً بعيداً، فهذا الكتاب من هذه الناحية كتاب فقه مقـارن، وبه يظـهر لنماذج من عصرنا وقـد نتفوا من القـرآن أو السنّة نتفاً، ولـم يلامسـوا من العربيـة إلا القليل، وأرادوا الاجتهاد، يظـهر لهم كيف يكون الاجتهاد، إنهم بنتفهم قد ضلوا وأضلوا، وزلوا أيما زلل وأزلوا، فالاجتهاد كلمة محبّبة، ولكن الوصول إليها ليس بالأمر الهين، إنه ليس بجمع نصوص لا يدري جامعها ما يصنع بها، أو النظر فيها دون معرفة تفسير الذين نقلوها ورووها..

إنَّ مـن المهمَّـات في باب الاجتهاد الإحاطة بمـذاهب المتقدمين، ومعرفة دليـل كل واحـد منهم، وحجته فيمـا ذهب إليه، وإنَّ من ينظـر إلى صنيع ابن القطان في هذا الكتاب يتيقَّن أنه من النخبة المتميزة في تاريخ الفقه الإسلامي.

وإن المكتبـة الفقهيـة التـي رجع إليها ابـن القطان لاستعراض المذاهب والآراء واسعـة جدّاً؛ عرفناها من خـلال هذا الكتاب، ومن خلال كتابه البديع المسمـى (**الإقنـاع في مسائل الإجماع**)[1]، الذي نخـل فيه كتب فقه المذاهب المعتمـدة وأصولها المتداولـة المرضية في كل مذهب، وعرفنا من خلاله دقته وحسن تصرفه في كتب الفقه على اختلافها.

---

(١) طبع بتحقيقنا مع شرحه ودراسته في دار القلم بدمشق.

٣ ـ لقد أجاد ابن القطان وأفاد في بحثه لمسألة النظر، وما يجوز إبداؤه، وما لا يجوز وغير ذلك من المباحث الكثيرة التي عرض لها، أجاد وأفاد في ربط النصوص الشرعية بمقاصدها، والحكمة من تشريعها، وبيان الغاية منها في تكوين الإنسان الربَّاني الصالح، وإبعاده عن مواطن الشبه والريبة، والسمو به عن دركات الفاحشة، فكان تعليل النصوص هاجساً له يسير معه، ويستعين به، وهو ينظر في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، فلم يكن نصيّاً جامداً يقف مع الظواهر أو يحشر المتناقضات، بل كان يوجه النصوص تبعاً لمقاصدها ويوفق بين ما ظاهره التعارض بوضع كلِّ نصٍّ في محله الذي سيق من أجله.

ومَن يقرأ هذا البحث يشعر شعوراً غامراً بأن فقهاء الإسلام، كانوا على الدوام أطباء المجتمع، وحرّاس الفضيلة فيه، ومصلحي خلل الأمة، بل كانوا نبضها المتحرك، وروحها الوثّابة، خبرة ومعرفة بما يجري ويدور في خلد الناس، وجنبات المجتمع، وأعماق الأُسر.. فيدلُّون الناس على الخير، ويجهدون لهم بالنُّصح، ويضعون نصوص الشريعة طبقاً للغاية التي جاءت من أجلها دون تعسُّف أو التواء؛ لأن الحياة بغير ذلك تفسد ولا تستقيم.. ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

٤ ـ ومن خلال الثمانية الأبواب التي أدار المؤلف كتابه عليها فرَّع كلَّ باب إلى مباحث ومسائل دقيقة جدّاً؛ استوعب بها ما هو واقع، وما يمكن أن يخطر بالبال في حياة الإنسان وله تعلق بالنظر والبصر والعورات، والضرورات، وبهذا يمكن الجزم بأن هذا الكتاب موسوعة شاملة فيه ما ليس في غيره من كتب الفقه والتفسير وفقه الحديث، ويغني عن غيره ولا يغني غيره عنه، ويسوق المسائل بمنهجية صارمة وتسلسل دقيق دون تكرار أو إعادة، وقد بلغتْ مسائله نحواً من مئة وإحدى وسبعين مسألة.

٥ ـ لقد وصل ابن القطان في كتابه هذا إلى نتائج حاسمة في تحديد العورات للرجل والمرأة، وما يجوز للمرأة إبداؤه، وهو الوجه والكفّان فقط، وتردّد في القدمين، ومال إلى عدم الجواز، فجاء هذا الكتاب ردّاً على مَن أراد تجريد المرأة والرجل من الإنسانية، وإطلاقهما في غابة الهبوط الحيواني دون خلق، أو وازع، أو حياء، وهذه حالة مَرَضية في تاريخ الإنسانية تتكرر آناً بعد آن، فقد كانت قديماً في الجاهلية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وتكون اليوم، وغداً.. فلا بدَّ لعلماء الشريعة استهداءً بنور الوحي من بيان حكمها والعمل لسدّ خرقها.

وجاء كذلك ليردَّ على تشدُّد طائفة غَلَتْ في الأمر، وأرادت إحاطة المرأة بضباب كثيف، وفرضت عليها تغطية كلِّ شيء فيها، وزعمت أن هذا هو الدين الحق!.. وإني أقول لهؤلاء على الدوام: لو قلتم: إنها الغيرة على الحُرَم، أو الورع والاحتياط؛ لسلمنا ذلك لكم، ولن يلومكم أحد بل يُحمد لكم ذلك، أما أن تعتقدوا وتروِّجوا للغلوِّ، وتفسِّقوا المخالف؛ فهذا أمر لا يصفو لكم، ولا حجة لديكم.

وقد ردّ عليهم ابن القطان بالحجج الدامغة والأدلة البيّنة التي لا تدع قولاً لقائل، بعيداً عن تطويح العواطف، ونزق الأحداث العارضة، فالشريعة دائمة بدوام الإنسان، محيطة بكلِّ حياته وأفراده.

إنَّ المسلمين جميعاً إن شاء الله سينتفعون بهذا الكتاب، وستكون فائدته أعظم عند الباحثين عن الحق المنقبين بطمأنينة عن الدليل، ولا سيما في هذا الوقت الذي نرى فيه أفكاراً شاذَّة عن الزمان والمكان.. تصبّ الجهود لفرض هيئة معينة، والإسلام يحاول المحاولون اقتلاعه من جذوره، ويعطيهم السُّذَّج من هؤلاء البرهان والمتمسَّك بخروج المرأة المسلمة في هيئاتها التي يروِّجون لها: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

- ٢ -

• لقد تشوَّف الباحثون والدارسون، وعلماء الإسلام وطلاَّب العلم إلى هذا الكتاب عبر العصور لجلالته وأهميته، وتوارى عن الأنظار دهراً طويلاً، وقد ادَّخر الله تعالى الفضل في إخراجه وتعميم نفعه في المشارق والمغارب للأخ الأستاذ إدريس الصَّمَدي، فأخرجه من ظلمات الرفوف في خزانة الأسكوريال بإسبانيا ليضعه تحت نور الأبصار، والله يختصُّ مَنْ يشاء بما يشاء.

والنسخة الوحيدة التي نعلمها لهذا الكتاب هي نسخة الأسكوريال، وهي نسخة سقيمة وفيها أخطاء كثيرة، وقد عكف الأستاذ الصَّمدي عليها بصبر وتؤدة دون كَلَل أو مَلَل، ولقد كان يعمل بها، ومرَّت به عاصفة من الأسقام والأمراض فما وَنَّه عنها، وما أقعدتْه عن متابعتها، وكنتُ أشفق عليه وهو يجد في ذلك لذّة وحلاوة، واستطاع أن يخرجها ويقوّم كثيراً من كلماتها وعباراتها، ويردَّها إلى الصواب بما رجع إليه من مصادر ومظان استخدمها المصنف، وبقيت كلمات صعبت عليّ وعليه فنرجو الله ﷻ أن ييسِّر لنا نسخة أخرى لإصلاحها واستكمالها.

ثم قام بتخريج أحاديثها وتتبعها بشكل جيد، وترجم لعديد من الرواة الذين ذكروا في الأسانيد، أو حام حولهم تعليل ابن القطان وتضعيفه.

كما ذكر مظانَّ كثيرٍ من المسائل الفقهية التي أوردها ابن القطان في كتابه، وتكلَّم فيها بما يسهل الرجوع إلى عديد من المصادر لمن أراد المزيد.

كما عرَّف بالكتاب وبصاحبه قبل الدخول إليه تعريفاً مطولاً نافعاً إن شاء الله.

لقد أسدى الأستاذ إدريس الصَّمَدي للمكتبة الإسلامية: الحديثية والفقهية بهذا العمل كتاباً نفيساً، تُشدُّ عليه يد الضّنانة، ويقتنى بكلِّ غالٍ ونفيس، أسدى

مرجعاً أساسيّاً لا يُستغنى عنه، تقبَّل الله منا ومنه هذا الجهد، وقد كان هذا الكتاب مع دراسة له رسالة نال بها درجة دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتقدير «حسن جدّاً».

• وقد تناولتُ الكتاب أثناء عمله فيه، وبعد انتهائه منه، فدققتُ كلِمَه، وأصلحتُ عدداً منها ومن عباراته من الأصل ومن غيره، وتتبعتُ مسائله وأحاديثه وعلَّقتُ على عدد منها بما يقنع ويفيد إن شاء الله.

وقد ميزتُها عن عمل الأستاذ إدريس بوضعها بين قوسين، وتصديرها بـ (قال أبو محمود:...) واقتصدت في ذلك ما أمكن، وضبطت عدداً من النصوص بالشكل.

وبذلك نرجو أن يكون هذا السِّفر النفيس قد غدا معيناً سائغاً للواردين ينهلون منه كلَّ آنٍ وحين، سائلين المولى تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، ويفيد الأمة في عاجل أمرها وآجله، ويتولانا بكريم رحمته وعنايته، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

الدكتور فاروق محمود حمادة

أبو محمود

في القنيطرة بالمغرب الأقصى

obeikandl.com